الفصل الحادى عشر

نتائج وانعكاسات لما سبق

إن المسيحى الأيبيرى وصل إلى نهاية عام ١٥٠٠ بوعى ثابت بأنه قد بلغ كلية وجوده لمجرد أنه ليس مسلمًا ولا يهوديًا، وأنه قد تفوق على الفريقين. كما أن إحساسه بالسمو والكفاية ولد واستقر فى ٨٠٠ عام من حياة لا مثيل لها فى أوربا الغربية، ولهذا فإن الأسبان والبرتغاليين قد اخترقوا العالم بهدف العثور على إطار حيث يحققون وعيهم بسؤددهم، ولم تكن الدولة بل الأشخاص الخاضعون لها هم الذين حققوا الأهداف العظيمة والحاسمة (غزو المكسيك والبيرو) ولذا لم يكن توسع أسبانيا شبيها بتوسع روما، فهذه أخضعت أراضى المغلوبين فى مؤسسات حكومية من خلالها توحدت الإمبراطورية والقانون والدين. أما أسبانيا فقد نبع فيها منذ بداية المؤسسات فيما وراء البحار- اشتجار حول ما إذا كانت هذه الغزوات مشروعة أو غير مشروعة، فالملك والكنيسة والهيئات الخاصة أقامت جدالا حول الحقوق المتعلقة بهذه الأراضى الجديدة، وحتى لقد وصل الأمر داخل الجزيرة الإيبيرية نفسها إلى عدم إقرار أية وحدة موضوعية فعالة تقارن بالسلطة الشاسعة للملوك، وفيليب الثانى حكم جزيرة غير متحدة فيما يتصل بشئونها الدنيوية والعاجلة، ودون تضامن خلاق وتقدمى مما يفسر الضعف السريع للروابط التى تربط الملكية بالبرتغال وقطالونيا وحتى بأراجون التى حاولت الانفصال من التجمع الإيبيرى.

إن أهل إيبيريا لم يخرجوا إلى العالم لتحقيق خطط حكومية وإنما استجابة لحوافز تتمثل فى الطموح إلى الثروة والتبشير (ردًا على الاستعمار الروحى الإسلامى) وأكثر من ذلك، حافز أسبانى محض وهو التشوف إلى تسيد الشخص فى شكل لم يكن معروفًا حتى ذلك الوقت بأكثر من حافز «كسب الشرف».

لم يتطلع أولئك الرجال إلى تنمية أو إخصاب الأشياء أو المعارف حوله عبر أنشطة اقتصادية أو تقنية أو فكرية، فقد عاشوا فقط كى- يجذبوا لأنفسهم هالة من الهيلمان الاجتماعى المناسب للكفاءة التى نصبوها من قبل لشخوصهم ولرجولتهم «فالنبلاء

الذكور . . كان عليهم البحث عن الحياة والمضى من أفضل إلى أفضل . . . ومحاولة كسب الشرف» هذا طبقًا لما كتب برنال دياث ديل كاستيللو عاكسا إحساس الكثيرين ممن خرجوا للقتال وتعمير الأراضى .

وفى عام ١٤٩٢ شعر أنتونيو دى نبريخا أن اللغة القشتالية قد بلغت ذروة عظمتها لدرجة أنه يخشى سقوطها أكثرمن تمنى ازدهارها فوق ذلك ، ولا شك أن هذه الجسارة من نبريخا فى الحكم لا تنبع من ثقافة اللغة القشتالية (لأنها فى ذلك الوقت لن تكون إلا الكتب المنقولة عن العربية أو اللاتينية ، إنما انطلقت من انتشار اللغة القشتالية فى أراجون ونافارا وإيطاليا تابعة لأمراء البيت الملكى الذين ذهبوا لتقلد الحكم هناك ، فمجد اللغة هنا لا ينبع منها بقدر ما ينبع من البريق الإمبراطورى الذى يسندها : وحدة أسبانيا ، وتوسعها فى الخارج على نصال سيوفها المنتصرة . فالوعى بالقوة السياسية يتساوى هكذا مع الاعتراف بعالمية القيم المعبر عنها باللغات اللاتينية والإغريقية والعبرية التى ساوى نبريخا مستوى القشتالية بمستواها حين تحدث عن عظمة تلك اللغة المذكورة . إن القشتاليين قد أحسوا بأن لغتهم قمة بين القمم لإحساسهم بأنهم سادة وأنهم فرضوا تسيدهم هذا على رجال آخرين ، أى بحوافز لا تنفصل عن وعيهم بأنهم موجودون شخصيا بطريقة سامية وليس بسمو مجموعة قيم موضوعية متمثلة فى منجزات بعيدة عمن أنتجوا هذه القيم . إن عظمة اللغة تشكلت من اتساع انتشارها وفى الاعتقاد بإمكانية استمرار هذا الاتساع ، وقد تم وضع النحو الأسبانى لا بهدف علمى ، وإنما بهدف تيسير اللغة لتحقيق المجد الإمبراطورى والمسيحى فى إمبراطورية الغد .(١)

ومع أن نبريخا كان قد درس فى بولونيا لمدة عشر سنوات ، إلا أنه لم يكن عالم إنسانيات على الطريقة الإيطالية إنما هو عالم على الطريقة الأسبانية طبقًا لأسلوب حياة العبرى- الإسلامى ، ذلك الأسلوب الذى يقوم على الاعتقاد فى المستقبل وليس على بناء حاضر قد صار مترسبًا فى واقع قد أنجز وصارت تطوله اليدان . إن الشخص الأسبانى السامى لا يتردد بين «وجود» و«معرفة» أو بين «أنا» ينشر المعارف السديدة و«بعض التشييدات الموضوعية» التى هى فى النهاية منفصلة عن الأنا . إنما الأسبانى يعيش فى الكينونة القادمة لآماله وفى النبوءة وفى الصيغة الإسلامية «الله أعلم» وفى الإخلاص الدينى ، وفيما هو وراء الواقع المؤقت فى فضاء اللحظة القادمة ، وفى نسق لا يصل إلى

(١) Antonio de Nebrija, Pròloge de la gramàtica castellana, 1492.

أهداف تنفصل عن نشاط تكون تلك الأهداف غايته والباحث عن وقائع معينة فى الحاضر هو بالضرورة باذر لأشياء ماضية غنوصية لامعة وخصبة تمضى باقية فى خلفية وجوده المفكر وعلى النقيض من هذا يكون ذلك الذى يتعلق بمستقبل عقيدته وأمله دون أن يصير تعلقه هذا مشكلة لوجوده الحالى ودون أن يبقى مع نفسه فى حالة من التقصى والجهل الساعى للمعرفة ودون فرض شىء بالإيمان أو بالمعرفة. فالعالم المحيط يبدو هكذا كلا مصمتا ومظلما يتكشف بضربة لازب ودائمًا مثل هدف أو غنيمة ممكنة للإرادة والأمل وليس للتحليل المتأمل، وفى مثل هذا الموقف، تتكثف الروح المعنوية وينمو الحماس حتى أن الشخص يحس أنه مربوط بثبات الوجود الذاتى دون أن يتعرى أبدا من شىء لدرجة أننى لكى أصل إلى الكينونة على أن أنفصل تمامًا عن الشعور الكامل بحياتى. إن فرض فيثاغورث بمجرد أن يوجد ويعبر عنه لا يحتاج لمخترع كى يعيش، والعبارة المشهورة أفكر ثم أوجد تستعمل بالضرورة عبارة أخرى «إن التفكير يمضى مترسبا فى أبنية مطلقة وصالحة كسند للوجود نفسه حيث إنها غير متكاملة مع هذا الوجود» وإذا كانت العقيدة فى إجمالها تحمل على عدم العلم فإن المفكر بإجماله (أو بمجرد العيش موضوعيا فى الأشياء أو فى اسهامات مضبوطة) سيتجه نحو هذا النمط من الرجال الذين ليس لهم واقع غير تفكيرهم الذاتى.

والمؤمن بالمستقبل- هذا النمط المزدرى بعد النهضة- سيكون خلاقا باستمرار، ناهضا وعطاء فيما يتعلق بكل إمكانية دون الوصول إلى الاستقرار فى أى من هذه الإمكانيات. إن هذا النمط المؤمن سيمتلك أيضا شبها بإله الكتاب المقدس أكثر من المؤمن بالنهضة الفخور بالقوة والمتطلع إلى محاكاة الألوهية وزراعتها بالمنشئات الروحية لعقله، تلك المنشئات المطلقة المطمئنة، وغير المحتاجة للعناية الإلهية، ويبدو ذلك مثلا فى قول هيجل «ينبغى أخذ المنطق كنظام للعقل المحض وكمملكة للتفكير المحض، فهذه المملكة هى الحقيقة دون تغليف، الحقيقة فى نفسها وبنفسها، ويمكن القول بالتالى بأن هذا المحتوى للفكر هو تجل لله فى جوهره الخالد قبل خلق الطبيعة والروح المحدود
(Wissenshaft der logic Shettgart, 1928 pages 45- 46).

وإله الكتاب المقدس والإسلام (قد عرضناه من قبل) سيكونان مثل فنانين لا ينهيان قط أعمالهما الفنية كشىء تم تشطيبه وإكماله، فالرجل- الذى خلقته التوراة- يخطئ مرة بعد الأخرى، وينبغى تقويمه وخلاصة من وجوده الخطاء بيد الإله المسيحى، والرجل المسلم- وكل ما يوجد بالنسبة له- تجربة دائمة تمارس أصابع الله فيها عملها دون توقف وكينونته

وحقيقته لن يبلغهما إلا فى لحظة تكامله مع نقطة الأصل عندما يعود إلى ديمومة العالم الآخر. أما الإغريقى- وامتداده العقلانى الأوربى- فهو فقط من يدعى بلوغ الحقيقة المطمئنة والمطلقة لكينونته.

ولم نشر من قبل- جملة- للطابع العملى والتطبيقى والمتكيف للمعرفة ما عدا استثناءات نادرة فالنظرية المحضة كانت شيئًا غريبًا بالنسبة للعرب. إن معرفتهم تتصل بالضرورات الحياتية وبالدين وبالسلوك الأخلاقى والسياسية والزراعة والصناعة أى إجمالا بالحاجة إلى السعى للرزق والرفاهية، وقد رأينا- أيضا- عند عرضنا لازدهار المعارف اليهودية فى اسبانيا قبل القرن ١٢، أن تلك المعارف لم تكن تلقائية عن مبادرة يهودية، وإنما كانت مشروطة بقوانين الثقافة العربية، وفى وقت متأخر اهتم الأسبانى اليهودى بالتقنيات والمهام الكفيلة بضمان هيلمان واسع له بالنسبة للمسيحى صاحب السيادة، الذى كان بدوره ينظر باحتقار وامتهان إلى أعمال هذه الفئات البشرية (مسلمين- يهود) الذين هم عباقرة ومستذلون فى آن، ولهم يدين السيد الأسبانى- من جهة أخرى- بفكرته وإحساسه بأنه فقط تغدو الحياة الآجلة مع الثقة فى كينونة الأشخاص والأشياء سبيلا وحيدا لامتلاك صلاحية الإنسان الكامل عبر تكامله الذاتى والغيبى.

وفى ظل تلك العقيدة والأساس الحيويين تلتقى الشعوب الثلاثة (مسلمون- يهود- مسيحيون أسبان) التقاء الشرقيين حتى أفق واحد فلا إحساس إلا الإحساس الميتافيزيقى التلقائى والواقع هو ما سيكون، وما ينبغى أن يكون: روابط دون فجوات مع الوجود المفترض والكامل للإنسان الفرد. فالعالم هو ما أحمله فى عقيدتى وفى يقينى الثابت، ولا شىء أكثر من ذلك. فالواقع الحاضر هو حجاب خفيف أو كثيف لغيب يكمن وراءه، ويؤكد هذا الرأى دراسة هانز فون سودين عام ١٩٢٧ وذو بيرى

(Revista de Occidente, 1933, C III p.p 94 y Sigs).

حول العبريين وافتراقهم عن الإغريق: «بالنسبة للإغريقى، تمثل قبيلته أو حكومته لحظة من الطبيعة، وبالنسبة للعبرى على عكس الإغريقى تصبح الطبيعة مسرحًا لوجود شعبه... ومن هنا فإن العبرى يرى العالم عبر أنماط وجوده الشخصى، والآخرون بالنسبة له ليسوا ببساطة آخرين، بل هم أجانب، فالآخر عند العبرى- كما نراه فى الإنجيل- ليس له المعنى المجرد «غيرى» بل معناه «الأجنبى» وهذا الأجنبى- سواء كان قريبًا أو بعيدًا- يمكن التعامل معه فى الحياة أو لا يمكن، فهو إما صادق فى كلمته أو كاذب

فيمكن معاونته ودعمه أو لا يمكن، والمعاونة والدعم يسميهما العبرى «أمان» ومن هنا تأتى كلمة emunah بمعنى ثبات واطمئنان، وثبات الصديق فى الكلمة التى منحها لى تعطينى الحق فى تسميته «الصديق الحقيقى» الحقيقة تبدو- هكذا للعبرى- مثل الإخلاص والوفاء بالوعد والصدق، ومن هنا يعيش العبرى بين الأشياء الأخرى ليراها جميعًا وعودا هى استمرارية الحجر ثابتا فى المستقبل ومتصرفًا داخله بصلابة: الحجز صلب تعنى: أن الحجر سيدوم. فالحقيقة هكذا ليست صفة من صفات الحاضر إنما هى وعد آجل. إن ذلك العبرى يتعامل مع البشر تعامله مع الأشياء.. فالحقيقة لا تنتمى لحاضر وإنما لمستقبل. العضو الحقيقى ليس الواقعel logos كإعلان لما هى عليه الأشياء. إنما الثقة والإيمان فيما ستكون عليه الأشياء، بما يعرض منها فى كينونتها الممكنة. الحقيقة تدرك فى الثقة والأمل... فما عليه الأشياء هو مصيرها، والمصير سيكون شفافا عندما نصل إلى نهاية الدهور، وأمام العالم يقول الإغريقى «يكون» والعبرى «هكذا ليكن» (amén). وبدلا من رؤية الكل- وهذا ما يسميه الإغريقى نظرية- نشهد رؤية أخرى للكل مختلفة جوهريًا: «الإسراء فى المستقبل».

وهذا الرأى يحظى بمغزى كامل إذا توسعنا فيه بالنسبة للإسلام وأسبانيا، والصفحات السابقة تجعل من هذا التوسع ضرورة. فالمسيحية الأسبانية- كما تظهر فى الفترة التالية لطرد المسلمين وامتصاص العنصر اليهودى - مليئة بأصداء عبرية أكثر من الواقع الإنجيلى ذى الطابع الإغريقى الذى هو أيضًا مفارق للمسيحية الأوروبية. والأصداء العبرية ترديد للثقافة الإسلامية سواء بالاشتراك فى الجذور السامية أو بمحاكاة الحضارة العربية. والإسراء فى المستقبل يبرز فى المسرح الأسبانى مثل مئات من الظواهر الأخرى إذا قررنا تأمل الأمر تحت ضوء مناسب من الرؤية. إننا أمام عالم يتم فيه التحسن فى القيم - إذا حدث - مشروطا «بما هو قادم» وليس بتقدم أو بصيرورة. وبنفس الشروط تعدم اللغة الأسبانية كلمة للتعبير عن الصيرورة بمفهومها فى اللغة الفرنسية فى لفظة Devenir أو فى اللغة الألمانية فى لفظة Werden لأن واقع عالم الأسبانية قد بنى من موقع أفكار أخرى. فإن شيئًا ما يعود هذا أو ذاك لكن لا يتقدم ولا يستحدث (Devenir) بالنسبة لخيط أفكار الإنسان حيث إن الحاضر خلق من الماضى وليس العكس، طبقا للعقائد الارتقائية فى القرن ١٩. ومن يصنع التاريخ الدلالى لكلمتى: Volverse ، Hacerse سيثبت له هذه الطريقة من تبؤر معناهما.

إن الأسبان الذين بدأوا حرب الاسترداد كانوا شعوبا متفرقة لا يجمعهم إلا محاربة المسلمين بينما كان بينهم ما طرق الحداد من خلافات. وبحافز من فترات الضعف المؤقتة التى يمر بها المسلمون فى الجنوب وبدافع الإحساس بالتفوق المستمر للمسلمين اندفعت تلك الشعوب الأسبانية المتفرقة فى إيمان بالغيب وبأنهم ابناء الله أو أبناء من كانت أبوته تمنح الشرف، وخلال اندفاعهم كانوا لا يجدون مركزا يتجمعون حوله فى انطلاقتهم نحو الحدود المتحركة جنوبا أو شمالا. فى ذلك الوقت كان الحافز الشخصى للقتال ولنيل السيادة والشرف والدفاع عن المسيحية ونشرها هو الحافز الوحيد الذى يجمع الأفراد فى الطريق نحو عالم ميتافيزيقى مجهول يصطدم «بالأجنبى» الموجود فى الجنوب بالمفهوم العبرى «الآخر». وفى ظل هذا الجو ينشأ شكل من الديمقراطية الفرنسية على أرض ثابتة وحول مركز ثابت هو باريس. فأتيح للفرنسيين ما لم يتح للأسبان من اتجاه نحو العقلانية، فلا معنى للعقلانية فى مثل هذا الموقف الأسبانى وإنما فرض على هؤلاء طريق شقه الامتزاج بالمسلمين واليهود، هذا الطريق أجبرهم على الاشتراك فى أشياء والافتراق فى أخرى. وقد استمر هذا الاندفاع المسيحى اللا عقلانى فى الأراضى المفتوحة فى العالم الجديد حيث تم تشييد المبانى الرائعة لتخليد وتشريف مسيحيتهم وأنفسهم فى آن. ولكنهم - بسبب ما فرضوه على أنفسهم من عدم محاكاة اليهود والموريسكوس فى العمل والاختراع - انصرفوا عن الواقع والحلم وانطلقوا فى تحليقهم الميتافيزيقى، ولولا الأموال الآتية من أمريكا لما استطاعوا تعضيد إمبراطوريتهم الأوروبية فضلا عن تعضيد أنفسهم كأمة مالكة لنفسها.

مجموعات بشرية أكثر منها طبقات:

معاونة اليهود صارت غير محمودة، فهو يعيش كوسيط بين المسلمين والمسيحيين مقدما مظهرا غريبا يستحيل أن يوجد فى المسلم، فاليهودى ضليع فى اللغات، دؤوب، متجول، يقظ دائمًا، منمزج عنصريا مع المسيحى أكثر من المسلم بالرغم من الجهد المسيحى المتأخر المعادى والمتمثل فى القوانين والمذابح للقضاء عليه. إن خصوصية مهام اليهودى غير الممكنة للآخرين - بل والمزدراة - حولته إلى شخص ينتمى إلى مجموعة بشرية مستقلة، ولا سيما أن عقيدته المخالفة حالت دون قيام رابطة عضوية وتدريجية لهذه المهام اليهودية مع مهام المسيحيين الذين بدورهم كانوا يشكلون مجموعة بشرية أخرى وليس «طبقة» أخرى. ومثل ذلك التسامح الطويل الممتد عبر القرون الوسطى - فى ظل المعايشة بين ثلاث مجموعات بشرية متناقضة: مسلمين، يهود، مسيحيين - حال دون ظهور النظام

المتدرج للإقطاع الأوربى : فلاحون، حرفيون، نبلاء. رجال دين. ولذا فإن أسبانيا انفصلت إلى ثلاثة تدرجات يستقل بعضها عن بعض، وهنا يكمن سر غياب المجتمع الإقطاعى. وإذا كنا قد رأينا أنه حتى القرن ١٦، قد بقى هناك موريسكوس ويهود يسيطرون على قلاع بأمر الملك، فأى مجتمع متماسك كان من الممكن أن ينتظم فى ظل مثل هذا الأساس؟

ولم يكن وجود الموريسكوس أو اليهود هو الذى يمنع تماسك الإقطاع (المجتمع الإقطاعى) وبروزه، إنما هذا الوجود نفسه يعد مظهرا من مظاهر صيغة للحياة تقوم على أساس العقيدة لا على أساس التفكير الموضوعى. وإن الإحساس «بالمجموعة البشرية» قد نما عند المسيحى بمعيار يقوم على : إن الاقتناع بكونه مستقرا فى عقيدته كان يمضى محددا صيغة لحياته ووظائفه الاجتماعية. وعليه فقد كان التسامح والتكافل المؤقت للعقائد يوافق جيدا بداية الأسبانى المسيحى لحياة فوق جواد عقيدته : جواد شانت ياقب (سانتياجو). ونصر - هنا - على الحاجة الماسة لعدم الخلط بين المفهوم المعاصر للتسامح مع المفهوم الأسبانى فليس تعيين ملك قشتالى لوزير خزانة يهودى له نفس معنى وزراء يهود فى بلاد معينة حاليا. إن التفريق بين المفهومين يجنبنا أن نطبق على ظاهرة تاريخية المفهوم النوعى لظاهرة أخرى. فالبلاد الحالية التى تعين وزراء يهود لا تؤسس حياتها على الاعتقاد فيما هو فوق إنسانى إنما على معايير عقلانية ذات وظائف سياسية. إن كلمة مؤمن - آنذاك فى أسبانيا - كانت تحتل مرتبة كلمة «مواطن» فى الفلسفة السياسية للقرن ١٨، وهى كلمة - أعنى مواطن - لم توجد فى القرون الوسطى. ولقد وجد موظفون يهود فى البلاطات الأوربية فى القرون الوسطى فى محاكاة مسيحية للثيولوجيا الإسلامية التى تقبل تعدد الأديان باعتباره أمرا صادرا عن إرادة الله. وقد شكل المسيحيون هذا المبدأ فى قوانينهم وطبقوه فى حياتهم، و فى نفس الوقت أدخلوه تحت صلاحيات قانونية أخرى مثل السماح لليهودى بالعيش مع المسيحى، والحيثيات القانونية لذلك هى الآتى : على اليهود أن يعيشوا فى أسر مستمر كذكرى لصلب المسيح، الذى قاموا هم أنفسهم بصلبه. وعلى الرغم من ذلك فالمعبد اليهودى بيت الله طبقا للقانون الأسبانى.

إلا أن اليهودى انقلب إلى «عقار» ملكى لكون العقيدة المسيحية متفوقة على العبرية، وتفوق المسيحى - بناء على ذلك - لم ينبع من نبالة إقطاعية، وإنما من إحساس بتفوق عقيدته مما نمى فيه أكثر الإحساس بالانتماء إلى «مجموعة بشرية» متميزة بشكل يفوق تنمية الإحساس بالانتماء إلى طبقة - فالطبقة الاجتماعية تتجسم حدودها بمحتوى وظائفها

ومهامها بينما المجموعة البشرية تتكامل بمجرد الوعى بوجودها، وعاجلا أو آجلا انتهى الأسبان المسيحيون بالإحساس بالمجموعة البشرية المتفوقة لمجرد أنهم مسيحيون وليسوا مسلمين أو يهودا. وصيغة حياته اليومية كانت -بالتالى - معادلة لصيغة خلقهم الأدبى: صيغة تكاملية من جذر إسلامى- يهودى، استخدمت على المشاع المعين الحيوى لكل من المسلمين واليهود والمسيحيين.

صيغة الحياة الأسبانية:

تكامل فى الشخص وغيبة للتفكير الموضوعى:

قد جرت العادة فى الحكم على الحياة الأسبانية من منطلق المبدأ الذى يقول: إن الصيغ الأكثر إنجازا - لما أطلق عليه الحضارة الغربية - تعد الهدف الأسمى الذى كان يجب أن تسير إليه كل شعوب الأرض، بدائيون ومتأخرون وأطفال أو ضالون: هكذا كان ينظر - وربما لا زال - إلى المجاميع البشرية التى لم يتضمنها قط حيز الحضارة التى بدأت فى اليونان وشكلتها سياسيا روما ثم وصلت بها - من بعد - إلى قمتها بتلك المكتشفات الفخمة للعلوم الطبيعية. والمؤمنون بكفاءة هذه الصيغة للحياة يرون أن الشعوب المتخلفة بالنسبة لهذه الحضارة يعيشون داخل دائرة فى انتظار استقبال ضوء الوحى الجديد، بنفس الطريقة التى عاشها الوثنيون (كما كان يظن فى العصر الوسيط) فى انتظار وصول المسيح. والفكرة المسيحية قد استبدلت فى القرن ١٨ لتحل محلها فكرة الإيمان بالتقدم فأولئك الذين لا يعالجون الرياضيات واللغة الفرنسية والتفسير العقلانى للعالم وآداب السلوك فى الصالونات الفرنسية كان ينظر إليهم أيضًا على أنهم أناس فى انتظار الخلاص. وكذلك الأمريكى اليوم يراهم غرباء وناقصين أولئك الذين لا يملكون منظمات اجتماعية شبيهة بمنظماته حيث إن منظماته هذه فى غاية التحضر كما يعتقد. والروسى السوفييتى بدوره لا يعترف بإنسانية كاملة فى الأمم إلا بنظام بروليتارى، وأسبانيا كارلوس الخامس تطلعت إلى ضم كل شعوب الأرض إلى حظيرة إيمانها الثيوقراطى الشريف (المرتبط بالدين والنبلاء) وبسطت عنفوانها من أجل هذا الحافز بنسبة لا تقل عن عنفوان الإنجليز فى القرن ١٩. وهذه الآراء المركزة (وغير الأنانية) تمثل ثقة ثابتة فى قيم الأمة التى تطلقها، وفى نفس الوقت تصير عقبة فى سبيل إدراك قيم شعب آخر لا يخضع لدائرة هذه الآراء فعليا، وإن خضع سياسيًا كذلك هذه الدائرة الضيقة تلقى بالخلل والعجز على عملية التاريخ للأمة نفسها صاحبة هذه الآراء.

ولاشك فى أن صيغة حياة لوطن ما - كانت ما كانت - يمكن فقط تقييمها تاريخيا بالنظر إلى القيم التى خلقتها وليس بالنظر إلى بلهنية العيش التى أمطرتها هذه الصيغة على أصحابها. وعند بداية هذه الصفحات كان المنطلق من الفرض بأن التاريخ الأسبانى تشكل من «العيش انغماسا» فى إحساس بعدم الرضا عن عاقبة ظروفه الذاتية أو فى الدفاع عن هذه الظروف بكل إمكانية لامتلاك الوعى بضرورة كينونته هكذا كما كانت. وهذه الظاهرة لا تطل علينا فى أجزاء أخرى حيث إن أوربا الغربية جربت ممارسة تغيرات مدفوعة بنشاطها الفكرى، بينما سقط المسلمون فى اطمئنان «شال» دون أن يثيروا قضية «إسلاميتهم»، وبعكس هذا، بل وفى مواجهة ذلك الاطمئنان - مهما كان نوعه أو طرازه - وعى الأسبانى المسيحى دائمًا أنه يحتاج إلى شىء ما، من ثم بحث عن أشياء تسد ذلك الفراغ الذى يفتقد امتلاءه، وشكل الصيغة الداخلية لحياته طبقا لنماذج سامية، وعمق إدراكه للظواهر الخارجية عبر عملية وجوده نفسها. ونضرب لذلك مثلا: ترددت مثل هذه العبارات «إصباح فقير وإمساء ثرى»، «البيت يمطر» وعبارات أخرى مثيلة. وقد كسب ذلك المسيحى الأسبانى المعركة -هكذا- على الطريقة الإسلامية بسبب محاصرته بوعى غير متعصب فى الداخل والخارج، وفى التفكير والحوافز، ومن هنا انتصب فى مجموعة بشرية مغلقة دون جواز إلى الآفاق العقلانية للعالم، وبالتالى دون إمكانية لخلق عالم موضوعى. بهذا النمط من العيش أدرك ذاته والعالم من حوله كما لو كان الاثنان فى حالة محددة وغير قابلة للتبادل، فكان إدراكا بغير إمكانية لتنويع الظروف المتعلقة به. وبدون اقتحام الأشياء من خارجها لظل الأسبانى يضىء لنفسه بقناديل من الزيت وبشموع وأخشاب مشبعة بالراتنج.

هذا العيش بكل الكينونة - كما يقول ابن عربى - أدى إلى نتائج عظيمة بالنسبة للفعل الشخصى والتعبير الشامل عن الحياة فى العمل الفنى. ومن الواضح أن الأسبانى المسيحى كان عليه أن يدفع لذلك فوائد باهظة. لكنه بدون أشياء أو أفكار موضوعية لم تتمكن المجموعة البشرية الأسبانية المسيحية من التحول إلى طبقة اجتماعية كما لم تتمكن من الارتباط بطبقات أخرى كان من الممكن وجودها على قاعدة من وجود موضوعى للأشياء والأفكار فليس من المتاح أى تبادل اجتماعى دون بنية للأفكار غير شخصية تحفز الناس على العيش طبقا لمشروعات موحية ومناسبة وممكنة. وهذه البنية للأفكار حدثت فى ظلها أعظم التغيرات فى أوروبا الغربية نتيجة لتبادل الأشياء والأفكار بين الطبقات بعكس أسبانيا التى ظلت إلى اليوم تتأمل ذاتها ممثلة فى كل شخص على حدة، تستورد من العالم

الإسلامى ثم من العالم الأوروبى، ولا تنتج إلا إحساسها بوجودها ممثلا فى الفن والأدب.

استجابة مستمرة للإرادة وليس لمطالب التفكير:

إن الأوروبى الغربى يستطيع أن ينفصل عما يعتقد ليتعامل مع الأشياء بموضوعية لصياغة مشروعات لأبنية جديدة للدين أو السياسة أو أى شىء كان. إن المؤمنين بواقعية العالم طبقا لقوانين الفلسفة الواقعية امتلكوا منذ القرن الحادى عشر امكانية النظر إلى الواقع طبقا للأفكار الموضعة للفلسفة المدرسية التى كانت تفرغ الأشياء من واقعيتها مبقية لها الأسماء فحسب، تلك الأسماء التى تشير إلى وجود يفتقد المضمون الموضوعى. وقد مهد ذلك لوجود مفكرين فى القرن الرابع عشر، ينادون بفصل الحقائق الدينية عن الحقائق العقلانية مما فتح الباب واسعا أمام الصولات والجولات العلمية. وأدى ذلك فى القرن الخامس عشر إلى أن تظهر - فى العالم غير الأسبانى - أكثر صيغ التفكير والتدين إغراء وتنوعا. فإنجليز القرن السادس عشر - حتى نشير لمثال - ظهرت بينهم فكرة موضعة - امتلكها أيضًا كثير من الأوروبيين - مؤداها أن الكنيسة الحقيقية لم تكن كنيسة هؤلاء الأساقفة، إنما هى كنيسة عامة المؤمنين، من ثم أقاموا صلواتهم فى المبنى الجديد المثالى. وعلى هذا انطلقت إلى الميدان العام فكرة أن الشعوب تملك حقوقا أكثر من الملوك فيما يتعلق بتقرير مصيرها. حينئذ قطع الإنجليز رأس عاهلهم، كذلك اقترح الفرنسيون - بعد ذلك - بعض الأفكار الغريبة حول عدم شرعية امتيازات النبلاء ورجال الدين، ثم نفذوا تلك الأفكار بوقف هذه الامتيازات، وتسليم السلطة العامة إلى طبقة اجتماعية جديدة، تلك الطبقة المسماة بالبورجوازية. وبعض الألمان فى القرن ١٩ قالوا - فى ارتباط بكل هذا - إن السلطة يجب أن تنتقل من أيدى الأغنياء إلى أيدى الفقراء. وقد أصبح هذا المنظور مغريا لملايين من الفلاحين الروس مما فرض تبدلا فى الحياة الروسية، وفى حياة شعوب أخرى.

وعلى العكس من ذلك، لم تتمكن المجموعة البشرية الأسبانية المسيحية من موضعة الأفكار أو الأشياء لا فى العصر الوسيط ولا فيما تلاه من قرون، وعاشت تتأمل وجودها الذاتى فى عيشها هذا الوجود نفسه ذاتيا. والغريب الفريد فى هذه الصيغة للوجود أنها رغم إسلاميتها فلم تكن نومًا فى العسل أو سكونا داخل النفس كما حدث للمسلمين والصينيين وإنما كانت محافظة على البقاء فى دفاع عن النفس بشكل غامض يوضع موضع الجدل، مع وعى كامل بضرورة الوجود فى كينونة تكون كيفما كانت، ومن المستحب أن تبقى كيفما كانت. إن الصيغة الأسبانية للحياة تدافع عن ذاتها بنفس الوجه الذى حمى به

دون كيخوته كيخوتيته فى مواجهة كل القساوسة والحلاقين والمتعلمين ومقننى العقلانية. إن كونك كيخوته يعنى بالضرورة إرادة تعضيد كيخوتيتك التى تريد أن تكونها ولو كان الثمن الحياة نفسها. إن الجوهرى فى الكيخوته ليست الجولات المسلية أو التقلبات لذلك المجذوب المختلط العقل، إنما هو العزل الجرانيتى فى أن يبقى شامخ القامة بالسلاح والظرف اللذين يمليهما فى مواجهة الجميع وجميع الجميع. وهكذا كانت أسبانيا منذ حوالى ألف عام، وقد أدت هذه الصيغة للحياة إلى استجابة مستمرة لمطالب الإرادة وليس لمطالب التفكير، وبالتالى لم تتوحد أسبانيا عبر جسور موضوعية تنبنى على أفكار وتفكير - سواء ممن يسكنها أو يعيش فى إمبراطوريتها - وأدى ذلك بدوره إلى عدم وجود اهتمامات عامة. إنما وجدت وجوه فى صفوف مرقاة تتقارب فى الاعتقاد فى الزعيم أو الملك أو «سانتياجو» أو الله. ولم يحدث فى أسبانيا ولا أمريكا الجنوبية أن تمكنوا من خلق تواصل بين الأقاليم فى شبكة من المهام العامة أو التى يكمل بعضها بعضا، فأصبح ذلك الواقع الانفصالى فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية أمرا طبيعيا من الناحية التاريخية. إن هذه الأقاليم تصير موحدة فقط إذا وجدت قوة خارجية وآلية تجبرها على هذا التوحيد.

وفى أسبانيا اليوم نجد كل وسائل التكنولوجيا الحديثة من القطارات حتى الحقن تحت الجلد، وفى أسبانيا الأمس وجدت وسائل تكنولوجية كانت جديدة فى زمانها، فما الفرق بين اليوم والأمس؟ الفرق: أن منتجى هذه التكنولوجيا بالأمس كانوا فى داخل أسبانيا حيث يصدر المسلمون واليهود ما ينتجون إلى مجموعة المسيحيين البشرية، أما اليوم فأسبانيا تتبنى كل ما ينتج فى الخارج وتستورده، وبقى أسبانى اليوم عاكفا داخل ذاته مثلما فعل بالأمس، واليوم يرى الأسبان التاريخ الذى فيه يوضعون قد تشكل من تهيئة سلسلة من التغييرات الزخرفية «على وضع ثابت مع دأب للخلود» يترك ما هو جوهرى من أسبانيا بعيدا عن اللمس.

إن الخلط بين الخالد والزائل قد أعطى دافعا تبريريا لأشواق من يوجدون فى أسبانيا. وعلى الرغم من ذلك فيكفى التفكير فى أن تلك الظاهرة تمضى فى طريقها معلنة عن نفسها منذ حوالى ألف عام لندرك أساس مثل هذا الفرض. فبدلا من التبسيط السهل سنلتقى مع أكثر المشكلات تشابكا وتعقيدا فى تاريخ الشعوب الحديثة.

إن كل تجديد يحمل بعض الأهمية فى مظهر التاريخ الأسبانى وفى الوقائع المنزوعة الشخصية - كان دائمًا يأتى من خارج أسبانيا المسيحية على الرغم من أن إرادة تحقيق ذلك التبادل لا تبدأ فى انطلاقها إلا من أسبانيا.

وعلى سبيل المثال قرر الأسبان فى العصر الوسيط ممارسة التسامح واقتباسه بجانب امتلاك أنظمة عسكرية وتأسيس مدارس، وقد تم ذلك الاقتباس من المسلمين مقابل رفض نفس هؤلاء المسيحيين الأسبان اقتباس أشياء أخرى كثيرة كان يمكن اقتباسها (مثل الشعر الغنائى). وحتى لو كانت هذه الاقتباسات قد أملتها الظروف فإنه لا يوجد ما يجعلنا نستبعد تواجد قبطان قادر للسفينة التى تلهبها سياط العاصفة.

وعلى الرغم من مبادرة أسبانيا إلى الاقتباس فإن هذه المبادرات لم تكن تصدر دائمًا من نفس الإقليم أو من نفس الطبقة الاجتماعية، فنحن نعلم مثلا أن إرادة طرد اليهود قد صدرت عن طبقة العامة وليس عن طبقة النبلاء. ومنذ ذلك الحين واصلت أسبانيا الاستيراد إلى اليوم.

حول الوجاهة الاجتماعية:

إن المسيحى الأسبانى قد وصل إلى كمال الوعى التاريخى بنفسه محاربا غلابا حتى أن التفوق والانتصار مضيا يلتقيان دون حاجة إلى النهوض بأى عمل آخر من الأعمال التى وقعت على كاهل قوم آخرين قد راحوا يؤدون كل الأشياء خاصة تلك التى لا يستطيع الأسبانى المسيحى أن يديرها أو يستوعبها. لقد أشبعت حتى الفيضان كل الاحتياجات التى صارت - فى نفس الوقت - مؤشرا لمشاعر أولئك الذين ينتجونها. إن تكنولوجيا المسلمين واليهود وعملهم كانا فيئًا بالغ العطاء إنسانيا، مثلما ستكون فيما بعد - وطبيعيا - معادن الهنود الثمينة. إن عالم الأشياء المنجزة من أجل الإنسان وعالم الثروات الموهوبة فى وفرة من الأرض تظهر تحت شارة المسود والسيد عبر قيمة وجهد قاس.. لقد دخل الأسبانى المسيحى تاريخه مع الإحساس الخطر بإمكانية الصعود المفاجئ إلى ذراه الرفيعة. وبالفعل فى عام ١٠٠٠م كان القشتالى يحس أنه قادر على غلبة المسلم الأندلسى، وأن قرطبة الرائعة صارت فى طول سيفه حيث إن الاستيلاء على طليطلة وعلى بلنسية (حتى ولو كان الاستيلاء على هذه المدينة الأخيرة استيلاء مؤقتا) وافق مشاعر التفوق فى القرن الحادى عشر، تلك المشاعر المؤسسة على الوعى بقيمته الجوهرية. وسيقول القمص بعد ذلك بقليل:

بالعمل الطيب [1] ينتصر فرسان أسبانيا

إن المسيحى الأسبانى مضى - فى ثقة من قوته ومكانته - يخضع المسلمين واليهود ويواجههم مقلدا مرات ما هو ذاتى (على سبيل المثال: الملابس، العادات الإسلامية..

(١) يقصد عمل المسلمين واليهود فى خدمة الأسبان.

إلخ) لكن ليس ما هو موضوعى أو غير ذاتى أن يبقى عنده فطرة فى عقيدته (التسامح الأخلاقيات) وليس ما كان سيكون بالحتم عدم تكامل فى الذات (التفكير - الموضوعية) وهكذا راح يبلور الإيمان - الدينى غالبا - فى القيمة الجوهرية لذات الفرد. وفى التعالى على كل ما عداها طالما كان عملا آليا. إن مفهوما تجريديا للتاريخ سيتأمل مثل تلك الفكرة كموضوع أو قولة سائدة، وسوف يكتشف علاقتها بالحط من شأن العمل الإنسانى عند أفلاطون بجانب عدم تقديره للفنون، الأمر الذى سيعود للظهور فى العصر الوسيط [1].

إن هذه القيمة لم تكن فحسب روحا معنويا، وفتوة وبريقا يوصف بها جميعا الشخص مثل نعوت له، وإنما كانت جوهر المنعوت بها، مما - يجعله كلا ويعطيه بالتالى «كلية» تحوله إلى إنسان من قطعة واحدة، وهذه مفاهيم نابعة عن قصد تصنيفى لما هو إنسانى (تصنيف للكائنات غير صالح خارج المنطقة الأسبانية) وهذه المفاهيم لا تعنى التكامل الأخلاقى أو النفسى بشكل هرمونى، مما قد لا يدفع إلى العمل وإنما تعنى شيئًا فاعلا يوحى بروح معنوية وقيمة جوهرية، ومن ثم يطلق على هذه الكلية المشار إليها - «كلية الحفز». إن الأسبانى هو الوحيد فى الحضارة الغربية صاحب الفكرة التى ترى أن المهنة الوحيدة اللائقة بالإنسان هى أن يكون إنسانا وليس غير. إن فعل «الأشياء» - الأمر الذى ينتهى بالوجود الخارجى أو المستقل عن الإنسان - يعنى تخلى الفاعل عن أن يصير إنسانا. ويؤكد ذلك ما حصل عليه مؤلف هذا الكتاب - عن طريق الصدفة - من إحصائية عن قشتالة وليون عام ١٥٤١م تقدم ٧٨١٥٨٢ ممول ضريبة، ١٠٨٣٥٨ أعيان (يعفون من الضرائب). هذا يعنى وجود ١٣٪ من عائلات المملكة لا تدفع ضرائب، ولا تؤدى أى عمل من أى جنس، وتعيش مثل طائفة منغلقة على نفسها، وعند هذه النقطة نصل إلى الطريقة الأسبانية فى العيش، وفى نفس الوقت نحس أن جماعة ما لا تستطيع أن تحافظ على بقائها دون عمل متبادل العطاء، فمن المحتم وجود رئيس يحكم ومطارنة يصلون، ومستشارين يشيرون، وقضاة يقضون ونبلاء يسيطرون (ويشعرون بمكانتهم)، وجنود يدافعون، وعمال يزرعون، وتجار يسوقون، وعمال ينهضون بما هو آلى. إن الفئتين الأخيرتين من الأنشطة كانت بالضبط تخصص للمسلمين واليهود، وإن هذا الأسلوب جلبه الأسبان الذين راحوا إلى بلاد الهنود (أمريكا) وأبقوه هناك حتى اليوم.

---

(١) Hugo de San Victor, en Patrologia, Vol. 176. Col, 747 (ap. E.R Corlius, en ZRP, h. LVIII, 23). سيكتب كثير من الأسبان حول ضرورة المحافظة على ما أسموه القيمة الجوهرية للإنسان (طبعا الأسبانى) بعدم الخوض فى الأعمال الخارجة عن هذه القيمة من عمل يدوى وغيره. راجع.
Concordia de las leyes divinas y humanas, Madrid, 1593. fd 126t.

إن قراءة نصوص كثيرة حول القرن السادس عشر تفيد كلية الحياة الأسبانية فى مناطقها العليا والمتوسطة والشعبية، فلا تفكير ولا معرفة ولا قراءة بعيدة عن السادية ودأب الاغتصاب عند محاكم التفتيش التى كانت مهمازا للإنهاك الثقافى الأسبانى فى ذلك الزمان الذى استعاض عن حيوية التعبير بسكينة العقل. إن الروح تطلب قبل كل شىء الحرية فتكون الحرية. إن طريقة الوجود حتى نهاية القرن الخامس عشر، والتى كانت مغلقة على أى موضوعية ممكنة أفرزت الضراوة القروية الطابع للتفتيش الذى صار بالنسبة للروح نفس الذى كانته المنظمة الاجتماعية والاقتصادية عام ١٥٠٠م بالنسبة للحياة المادية للقرون: كبت وتحكم.. والخطير أن الروح الأسبانية لم تكن حينذاك معدة للنضال فى الحقل المفتوح للنشاط العقلى.

بافتراض هذا الأسلوب للحياة كان لابد أن يصير كل شىء هكذا، ونحن فى غنى عن إضاعة الوقت فى عرض الأضرار التى ترتبت على إمبراطورية العقيدة أو كشف أن خشونة وإنهاك العقل - أخيرا - هما عجاج ترك خلفه القرى تتغذى فقط على العقيدة. وبناء عليه، كان على أسبانيا أن تصير قرية من فلاحى مسرح القرن السابع عشر ومن جماهير الفلاحين والفقراء المفتقدين لمدخل إلى الوجاهة (النبالة) يهيمون على وجوههم فى كل أنحاء شبه الجزيرة.

إن التاريخ لا يكون بطرح أحداث وإجراء ملاحظات عليها، وإنما برؤية الحوافز والمقتضيات. إن الشوق لقيم مطلقة كواقع نقى معيش لا ينقطع تياره كان مضادا للفكر الذى بحث عنه الأسبان من كبار من عارض هذا الأسلوب للحياة أو كان أيضًا مضادا لراحة ورفاهية افتقدها كل الأسبان فى ذلك العصر وفى كل عصر.

ولنختتم بالآن

مما يستحق التقدير خداع النفس جذريا فى متابعة للطريق الذى بدأه هذا الكتاب، وذلك أفضل من ادعاء انغلاق «ما هو إنسانى» داخل الأحداث، وفى كلمة أخرى داخل أشباح دون التئام تاريخى حيوى. فلم نحاول قص أثر تاريخ بالمعنى المعتاد للكلمة، وإنما حاولنا تقديم ترشيد يجعل كتابة التاريخ أمرا ممكنا يوما ما. ومن أجل هذا المشروع - أو البدن - لقصة الحياة الذاتية لأسبانيا قد خدمتنا تلك الظواهر التى تتجلى فيها صيغة الحياة معبرة عن نفسها مباشرة: فى اللغة، فى الأدب، فى الاعترافات الذاتية، و فى كل ما يبدو لنا بنية التدفق الحيوى للذات. وكتابات اليوم تعلن عن عودة بعض الظواهر التى تحدثنا عنها فى

الأدب الحديث. ومع ذلك فإن ظواهر القرن السادس عشر ليست هى ظواهر القرن السابع عشر حيث تدخل فى هذا الأخير خيوط من لون آخر، ومع ذلك ظل «النسيج الإسلامى - اليهودى» فاعلا : فى الحياة الدينية والأدبية.

فى النهاية فى الوقت الذى يمكن أن تكون العقلانية الإغريقية الأوربية وقد ولدت فيما بعد قيما رفيعة أو غير رفيعة ، لا يمكن كما رأينا تجاهل ما هو أسبانى وما أعطته أسبانيا لأوربا التى ظلت قطعة منها لا يمكنها الاستغناء عنها.

ويعد:

لهذا العمل بقية تتمثل فيما أنوى تقديمه من التطور الذى أصاب تفكير أميريكو كاسترو ونظرياته وهو تطور يقدم عالما يتجاوز نفسه دائمًا فضلا عن تجاوز علماء عصره بين الحين والحين. وجزء أساسى من هذا التطور المعركة التى دارت حول نظرياته وما أحدثته هذه النظريات من تطور فى فكر الآخرين. أخيرا، أسبانيا عضو الاتحاد الأوربى اليوم، ليست أسبانيا ١٩٤٨ عام صدور هذا الكتاب لكن مازال أدبها ولغتها وصيغ حياتها مفاتيح لتاريخها المعاصر، وهى مفاتيح لخزانة مظلمة بها صورة العربى، الذى رآه ملكها لزريق حين كسر أقفال غرفته السرية كنبوءة لفتح العرب للأندلس، كى يبقوا تسعة قرون، صنعت شموع رؤية أسبانيا لنفسها فى تاريخها، وتركت لنا شموعًا خالدة حتى لو ظننا -خطأ - أنها مطفأة، بسبب موقفنا العجيب من تاريخنا، كأنه شىء غير ضرورى: ليس أكثر من كونه مصدرًا للعملة الصعبة التى تجلبها السياحة، إذا كان من نوع التاريخ الجالب للسياحة.

وبالله التوفيق